(من كتاب الحجّ وروح العبادة فيه)

(١٩)

الحجُّ والتوبة والاستغفار

تأليف

عادل بن عبد العزيز الجهني

جميع الحقوق محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحاجُّ إلى بيت الله الحرام إنّما أخرجه من بيته استجابته لربه الذي أمره بذلك، فقد أمر اللهُ خليلَه إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يبنيَ البيت، ويؤذن في النّاس بالحجِّ، فاصطفى اللهُ من شاء من عباده لهذا النسك، ووفقهم للاستجابة لهذا النداء وهم في أصلاب آبائهم، ولبَّوا هذا النداء، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾(١).

ويحملُ الحاجُّ إلى بيت الله الحرام -أيضًا- الرغبة في نيل ما ورد فيه من فضائل، فقد قرأ ما أعدَّه الله من ثوابٍ للحجّاج، من مغفرة الذنوب كلها، والوعد بالجنّة، فطمعت نفسه لإدراك هذا

(١) [سورة الحج: الآيات ٢٦-٢٨]

الفضـل، وتاقت روحُه للحصول على هـذا الخير، وكثيرًا ما كان الحـجُّ موعدًا لتوبة التائبين، وإنابة المخبتين، وعودة الشـاردين، ورجوع النادمين.

لقد رأوا فضل الله عليهم بالتوفيق لهذه العبادة، وتيسير الأمور لهـم بالوصـول إلى مواطـن الرحمة والخيـرات، وتذكّـروا مِنّته عليهم بتسهيل هذا الفرض، وتهيئة أسبابه وتيسير سُبله.

ورحمة الله ظاهرة في الحـِّج، فيُقبل الحاجُّ عليه، وقد امتلأت صحيفتـه بالذنوب، واسـودَّت بالخطايـا، ويبقى في الحـجِّ أيامًا معدودات، فتُمحى تلك الخطايا، وتُغفر تلك الذنوب.

فأي فضل أعظم من هذا الفضل!؟

وأيُ كرامة أشرف من هذه الكرامة!؟

فحقٌ على كل قاصد للحجِّ أن ينوي التوبة النصوح سواءٌ كان مسرفًا على نفسـه في الذنوب -وهو أولى النّاس بذلك- أو عنده ذنـوبٌ لا يزال مُصِرًّا عليها -ولا يكاد أحدٌ منّا ينفكُّ عن الذنب- أو طالبًا لمغفرة ربه وفضله، وكلُّ الحجيج طالبون ذلك، ولنوقن أنّ حق الله على عباده عظيم ولا يوفيه أحد.

ومواطـن التوبـة للحُجَّـاج كثيـرة، فمنهم من ينـوي التوبة من حيـن عزمه على الحجّ، ومنهم من ينويها مـن بداية رحلته، ومنهم مـن يوفق لها بعد طوافه وسـعيه، ومنهم من يسـمع كلمةً وموعظةً فينتفـع بها، وتكون سـببًا لتوبته، وأكثر ما يكون مـن توبات في يوم عرفة، حين تخشـع القلوب، وتُذرف الدمعـات، وتتوجّه النفوس الصادقـة إلـى الله بطلـب الإنابة والمغفـرة، فيجعـل اللهُ فيها حُبَّ التوبـة، فترى العبد بعـد الوقوف بعرفة قد أقبل على ربه، مسـتغلًا يوم النحر وَأَيَّامَ التشريق بمزيد اجتهاد، مكثرًا من دعاء ربه أن يربط على قلبه، ويُثبته على الهداية والاستقامة، ومنهم من يُقبل على ربه بعـد دعوات صادقات يدعوه بها عند الجمـرات، بل ربما لا يوفق البعـض للتوبة إلا في طواف الوداع، وهذا من رحمة الله بعبده، فإنّ لله نفحاتٍ إذا أصابها عبدَه سعد سعادةً لا يشقى بعدها.

فمثـل هؤلاء ترى أحدَهم بعد حجِّهِ كأحسـن ما أنت راءٍ من مؤمن تقي، قد أدّى فرضه، وقام بحق ربه، مُجتنبًا معاصيه، فيُعينه ربُّهُ ويسـدِّدُه، ويصرفُ عنه الشُّـرُورَ والفتن حتـى يلقى ربه وهو راضٍ عنه، وكلُّ هذا من توفيق الله له.

إنّ الطاعـات التي يُؤدِّيها الحـاجُّ على أكمل وجه، وما يكون مـن دعاءٍ صادقٍ بإخـلاص وإخباتٍ بين يـدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى كل ذلـك له أثـره العظيـم في الرغبة بالتوبـة، والعزم علـى البعد عن المعاصي، خاصةً وقد شرَّفَهُ الله بأداء هذه العبادة، فكيف يتدنَّس بالخطيئـات وقد طُهّر منها؟! وكيف لا يسـتحي من ربه وقد عفا عن إساءته؟!

والتوبـة منزلةٌ شـريفة، ومرتبـةٌ منيفـة، أحبَّها الله مـن عباده، وجعلها سبيل محبته، وطريق رضاه عنهم، وعفوه عن خطيئاتهم، وهي منزلة رفيعة، مَنْ بلغها فقد بلغ السـؤدد من الخير والفضل، يكفيـك في فضل التوبة محبة الله لأهلها، قـال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[١].

وكلمـا أيقن العبـد بحاجته لها وجدتَهُ أسـرع النَّاس للطاعة، وأبعدهـم عن المعصية، لعلمـه بعظيم حق ربه عليـه، وتراه كثير الحيـاء منه، ويـؤوب إليه علـى الدوام لإيمانـه أنَّ ربَّـهُ أحقُّ من استُحي منه.

(١) [سورة البقرة: الآية ٢٢٢]

وأنـتَ إذا رأيـتَ بعـضَ الحُجَّـاج وقد عـادوا مـن حجّهم، وأحوالهـم كمـا هي مـن تفريطٍ في الصلـوات، وعدم تحـرُّزٍ من الذنـوب والخطيئات، أيقنت بضعف أثر الحـجِّ عليهم، بخلاف مـن أدّى الفرض بإتقان، وقـام به على أكمل حـال، فإنه ينتفع به النفـع المرجـوَّ منه، فـالله إنَّما شـرع الشـرائع لتهذيـب النفوس وإصلاحهـا، وتطهيرهـا من أدرانها، فما دُمتَ في مناسـك الحجِّ، وفي مواطـن الرَّحَمات، فاجتهد أن يكون حجك مبرورًا، سـليمًا مـن الخطيئات، وإن وقعت في خطيئة أو ذنب -ولا يسـلم أحد- فبادِرْ إلى التوبة والندم وكثرة الاستغفار.

إنَّ مَن تفكّر في سرعة زمن الحجِّ دعاه هذا إلى أن يستحضر سرعة زوال الدنيـا، وارتحال المرء عنها، فهو يقدم إلى مكة والمشـاعر، ثمَّ لا يلبث إلا أيَّامًا معدودات ويعودإلى أهله، وكأنَّه لم يغادرهم، وتمضـي سـاعات الحـجِّ بسـرعة عجيبة، وهكـذا الدنيـا تمضي وترحـل، وصـدق الله القائـلُ: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ (١)

وهذا من أعظم الدروس التي ينبغي استحضارها والانتفاع بها.

(١) [سورة غافر: الآية ٣٩]

ومـن تأمَّل في حاله وقد أدَّى فرض حجِّهِ على التمام، وسـعى في إكماله، وحفظ جوارحه فيه، وإن وفق وحافظ على وقته وملأه بالطاعـات، دعـاه هذا إلى أن يعود باللَّوم على نفسـه، فهي قادرةٌ علـى الطاعات، ومسـتطيعة للقيـام بأمر الله واسـتثمار العمر بما يُقرِّبهـا إلى ربها، فلمـاذا خَلْق الأعذار، وتَوَهُّمُ عـدمِ القدرة على الطاعة، وادِّعاءُ صُعُوبةِ فعلِ الباقيات الصالحات؟!

إنَّهُ ليس أكرم على المرء من نفسه التي بين جنبيه، ولا إحسان كالإحسـان الذي يقدمه لها، فلِم يَحرم أحدُنا نفسـه من الطاعات التي تنفعه، وتكون له زادًا ليوم التناد؟!

وإنها لفرصةٌ للحاجِّ أن ينتفع من هذا الفرض، وغنيمة يغتنمها الموفـق ليجعل حجَّـه مُنطلقًا لِما يقرِّبُـهُ إلى ربـه، فالحياة الدنيا قصيرة جدًّا، والآخرة هي الحياة الحقيقة التي ينبغي السـعي لها، وإيثارها، والعناية بشأنها.

ومن الحجِّ يتعلَّم المرء أنَّ البيئة الحسـنة والصحبة الطيبة لها أثرها على صاحبها، فقد صَاحَبَ الحاجُّ في حجِّهِ الأخيار، وكانوا

خيـر معينٍ له على الطاعة، فلِمَ لا يحرص أحدُنا على هذه البيئة، وتلك الصحبة التي ستكون أعظم معين له على الاستمرار على الطاعة، وخير سبيل لاستدامتها؟!

اللهم وفقنا للتوبة النصوح، وخذ بأيدينا لِما يُرضيك عنَّا يارَبّ العالمين.

***